

عماد الدين الكاتب الاصفهاني

(٥١٩ - ٥٩٧ هـ)

قيس آل قيس*

المستخلص:

محمد بن صفي الدين الملقب بـ عماد الدين الأصفهاني (١١٢٥ - ١٢٠١ م) = (٥١٩ هـ - ١٣ رمضان ٥٩٧ هـ) مؤرخ أديب شاعر عاصر الدولة النورية والأيوبية ودون أحداثهما توفي في دمشق عام ١٢٠١. ولد عماد الدين في أصفهان عام ١١٢٥ ثم انتقل منها إلى بغداد وتلقى تعليمه في المدرسة النظامية وتدرج في الوظائف فشغل نظر البصرة وبعدها نظر واسط إلى ان أصبح نائب الوزير ابن هبيرة. بعد وفاة الوزير ابن هبيرة أنتقل إلى دمشق عام ١١٦٦ م ٥٦٢ هـ وقدمه قاضي دمشق كمال الدين الشهرزوي إلى نور الدين زنكي ملك دمشق حيث عينه معلما في المدرسة النورية التي عرفت فيما بعد بالمدرسة العمادية ثم ولاه بعدها الإشراف في ديوان الإنشاء. بعد وفاة نور الدين عام ١١٧٣ عزل عماد الدين عن جميع وظائفه وطرد من البلاط فانتقل للعيش في الموصل وبعد أن بلغه إن صلاح الدين الأيوبي عاد من حروبه إلى دمشق فاتصل بالقاضي الفاضل الذي توسط في أمره وعين في ديوان الإنشاء نائبا للقاضي الفاضل وعاش حياته في دمشق ورافق صلاح الدين الأيوبي في حياته ومعاركه. وبعد وفاة صلاح الدين عام ١١٩٣ م أقام في منزله وأقبل على التصنيف حتى وفاته عام ١٢٠١ م / ٥٩٧ هـ.

مؤلفاته: البرق الشامي (كتاب تاريخي) - خريدة القصر وجريدة اهل العصر - ديوان الرسائل - ديوان شعر - الفتح القسي في الفتح القدسي (كتاب تاريخي) و

غيرها .

الكلمات الرئيسية : الاديب الشاعر – ايران و اصفهان – ديوان الانشاء –
دمشق – المدرسة النورية و المدرسة العمادية



المقدمة:

إنّ القرآن المجيد هو البحر الزاخر، و منه يتشعب علم الأولين و الآخرين كما
تتشعب عن سواحل البحر المحيط الأنهار و الجداول، فكان القرآن الكريم هديّ
للشريعة و منار اساليب البلاغة العربية و منبع العلوم و الآداب و قد ظهر في سماء
هذه العلوم كواكبٌ ساطعةٌ انارت عالم الآداب و العلوم، منها:

أبو عبدالله، عماد الدين، محمد بن محمد^١ بن حامد بن محمد بن عبدالله بن علي بن
محمود بن هبة الله، المعروف بالعماد الكاتب الاصفهاني^٢. ولد سنة ٥١٩ هـ في مدينة
اصفهان ببلاد فارس [ايران] في شهر شعبان، و قيل في جمادى الثاني، ونشأ بها وأخذ
علومه الأولية فيها.

كان مؤرخاً شاعراً كاتباً فقيهاً، رحل في طلب العلم الى بغداد وانتظم في سلك المدرسة
النظامية، ثم عاد الى وطنه اصفهان فتفقه بها على مذهب الشافعي، ثم سمع الحديث من
أعيان علمائها، ورجع الى بغداد واشتغل بصناعة الكتابة. قال طاش كبرى زاده في مفتاح
السعادة:

" كان فقيهاً شافعي المذهب، تفقه بالمدرسة النظامية، واتقن الخلاف وفنون الأدب.

١. سماه ابن الوردي في تنمة المختصر في أخبار البشر (ج ٢ ص ١١٧) " محمد بن عبدالله" وكذا أبو
الفداء في المختصر (ج ٣ ص ١٠٠).

٢. وقال الزركلي في الأعلام: محمد بن محمد (صفي الدين) بن (نفييس الدين) حامد بن أله الكاتب
الاصفهاني. وقال في هامش ص ٢٥٤: " أله" كما ضبطه صاحب وفيات الأعيان، وابن قاضي
شبهة في الإعلام بتاريخ الإسلام: بفتح فضم فسكون (وهو بالفارسية العُقَاب بضم العين)، وضبطه
السبكي في الطبقات الكبرى، بضم الهمزة واللام، والأول أصح. [وضبطته القواميس الفارسية
بهذا التلظظ: Ollah Olah] أي: عُقَاب.

وله من الشعر والرسائل ما يغني عن الإطالة في شرحه...".

وقال بروكلمن في تاريخ الأدب العربي:

" ولد باصفهان سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م... ولما الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة [وزير المقتدى والمستجد العباسيين] نظر البصرة ثم نظر واسط. ولما توفي الوزير ابن هبيرة سنة ٥٦٠هـ / ١١٢٥م فقد العماد مكانته، وأودع السجن، ومع أنه أطلق سراحه بعد ذلك بقليل، لم يستطع أن يستعيد مكانته بالعراق، وانتقل الى دمشق بعد ذلك بسنتين، وهناك قدمه القاضي كمال الدين الشهرزوري الى الأمير الكردي نجم الدين أيوب، واكتسب حظوة صلاح الدين بن نجم الدين. وجعل الملك نور الدين محمود بن زنكي، العماد، صاحب سرّه، وسيّره، رسولاً الى الخليفة ببغداد، وبعد أن نجح العماد في هذه المهمة فوّض إليه الأمير نور الدين سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م تدريس المدرسة العالية التي أنشأها في ذلك الوقت وسماها العمادية تكريماً له، ثم ولّاه في السنة التالية الإشراف على ديوان الإنشاء.

ولكن ابنه وخليفته الملك الصالح اسماعيل الذي ولي الملك سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م وهو في الحادية عشرة من عمره، عزل العماد من جميع مناصبه وطرده من البلاط. فخرج العماد من دمشق قاصداً بغداد، فوصل الى الموصل ومرض بها، وهناك بلغه أنّ صلاح الدين استولى على مصر وأنه خرج منها قاصداً دمشق ليستولى عليها. فلاقاه العماد في حمص، واكتسب حظوته من جديد، ورافقه في كلّ حملاته. ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م اضطر العماد الى لزوم بيته، وأقبل على التصنيف حتى وفاته "

وقال ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة:

" اشتغل بالأدب، وبرع في الإنشاء... وكان فاضلاً حافظاً لدواوين العرب ... وكان القاضي الفاضل^١، يقول: العماد الكاتب كالزناد الوقاد (يعني أنّ النار في باطنه كامنة،

١. هو القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي بن محمد اللخمي العسقلاني البيساني المتوفى سنة ٥٩٦هـ، وكان من وزراء السلطان صلاح الدين، أكثر مؤلفاته في الترسل والإنشاء، (راجع: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١٥٦، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ج ١ ص ٢٨٤).

وظاهره فيه فترة)...".

وقال جرجي زيدان في تاريخ آداب العربية: " عماد الدين الاصفهاني، ويعرف بابن أخي العزيز نسبة الى عمّه عزيز الدين صاحب تكريت، نشأ في اصفهان وأتى بغداد في حدائته، ودخل المدرسة النظامية...، كان واسع العلم في الأدب والشعر والتاريخ والفقّه، واشتهر بالإنشاء المسجع على عادة كتاب ذلك العصر...".

وقال ياقوت في معجم الأدباء: " قدّم بغداد وانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية فتفقه بها بأبي منصور سعيد بن محمد بن الرزّاز، وسمع منه ومن أبي بكر الأشقر وأبي الحسن علي بن عبدالسلام وأبي القاسم علي بن الصباغ وأبي منصور بن خيرون وأبي المكارم المبارك بن علي السمرقندي وجماعة. وأجاز له أبو عبدالله الفراءوي وأبو القاسم بن الحصين، ثمّ عاد الى اصبهان فتفقه بها أيضاً على محمد بن عبداللطيف الخجندي^١، وأبي المعالي الوركاني^٢ ثمّ رجع الى بغداد واشتغل بصناعة الكتابة فبرّع فيها ونبغ، فاتّصل بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط.

ولما توفي الوزير ابن هبيرة وتشتت شمل المنتسبين اليه، أقام العماد مدة ببغداد مُنكّد العيش فانتقل الى دمشق ووصل إليها في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة، فأنزله قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية المنسوبة الى العماد الآن المعروفة بالعمادية، وإنما نسبت اليه لأنّ الملك العادل نور الدين ولّاه إياها سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان العماد له معرفة بنجم

١. خجندة ذكرها ياقوت في معجم البلدان بفتح الخاء وفتح الجيم وقال: إنها بلدة فيما وراء النهر على شاطئ سيحون موضع نزّهة. قال أعشى همدان:

ليت خيلي يوم الخجندة لم تهزم وغودرت في المكر سلبيا

الى آخر ما أورده فيها.

٢. وركان بفتح فسكون وكاف بعدها ألف ونون، محلة بأصبهان، ووركان ثانية من قرى قاشان منها: أبو المعالي المذكور وأخوه أبوالمحاسن، وهما ابنا أبي الحسن بن الحسن = الأديب الشاعر، وهناك وركان ثالثة محلة بنيسابور منها: محمد بن جعفر الوركاني، ووركان رابعة من قرى همدان. من معجم البلدان.

الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، عرفه بتكريرت حين كان نجم الدين والياً عليها، فلما سمع نجم الدين بوصوله بادر لتبجيله والسلام عليه في منزله. ومدحه العماد إذ ذاك بقصيدة أولها:

يومُ النَّوى ليسَ منْ عمري بمحسوبٍ ولا الفراقُ الى عيشي بمنسوبٍ
ما اخترتُ بعدكَ لكنَّ الزمانَ أتى كرهًا بما ليسَ يا محبوبٍ محبوبي
أرجو إيابي إليكم غانماً عَجلاً فقد ظفرتُ بنجم الدين أيوبٍ
مُوفِقُ الرأي ماضي العزم مُرتفع على الأعاجم مَجْدًا والأعاريبِ
أحبُّك الله إذ لازمتُ نُصْرَتَهُ على جبين بتاج المُلكِ مَعْصوبِ

وهي طويلة فشكره نجم الدين وأحسن إليه وأكرمه، وقدمه على الأعيان وميزه وعرف به ابنه صلاح الدين، وكان القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يحضر مجالس العماد ويذاكره بمسائل الخلاف في الفروع، فنوه القاضي بذكر العماد عند السلطان نور الدين، وذكر له تقدمه في العلم والكتابة وأهله لكتابة الإنشاء، فتردد العماد في الدخول فيما لم يتقدم له اشتغال طويل به، مع توفر مواد هذه الصناعة عنده خوفاً من التقصير فيما لم يمارسه، ثم أقدم بعد الاحجام فباشرها وأجاد فيها حتى زاحم القاضي الفاضل بمنكبٍ ضخم^١.

وكان ينشئ الرسائل بالفارسية أيضاً فيجيد فيها إجادته بالعربية، وعلت منزلته عند نور الدين وصار صاحب سرّه، وفوض إليه تدريس المدرسة العمادية كما تقدم وولاه الإشراف على ديوان الإنشاء، ولما توفي نور الدين وولي ابنه الملك الصالح إسماعيل أغراه بالعماد جماعة كانوا يحسدونه ويكرهونه، فخاف على نفسه وخرج من دمشق قاصداً بغداد، فوصل الى الموصل ومرض بها ولما أبلّ من مرضه، بلغه خروج السلطان صلاح الدين من مصر قاصداً دمشق ليستولى عليها، فعزم على الرجوع الى الشام.

وخرج من الموصل سنة سبعين وخمسائة فوصل الى دمشق وسار منها الى حلب، وصلاح الدين يومئذ نازل عليها فلاقاه في حمص وقد استولى على قلعتها، فلزم بابه ومدحه بقصيدة طويلة كان نظمها قبلاً في الشوق الى دمشق والتأسف عليها فجعل

١. كناية عن رسوخ قدمه وعلو كعبه حتى فاق القاضي الفاضل.

مدح صلاح الدين مخلصها أولها:

سوى عدلكم فاعدلوا او فجوروا
فلا تمنعوه إذا لم تزوروا
لديكم اسيرٌ وعنكم اسيرٌ
ش بعد الاحبة إني صبورٌ
وقلبي وصبري كلٌّ غدورٌ
لها الوجد داغٌ وذكري تثيرٌ
يزيدٌ يزيدٌ وتورٌ يتورٌ
فها انما من حرة استجيرٌ
على ذكره العذب عيشي مريرٌ
ويوم اللقاء يكون النشورٌ
فعن نيله اليوم باعي قصيرٌ
فانت باخبار شوقي خبيرٌ

اجيران جيرون مالي مجيرٌ
ومالي سوى طيفكم زائرٌ
يعز علي بان الفؤاد
وما كنت اعلم اني اعي
وفت ادعبي غير ان الكرى
الى ناس باناس لي صبوّة
يزيدٌ اشتياقي وينمو كما
ومن بردى برد قلبي المشوق
وبالمرج مرجو عيشي الذي
فقدتكم ففقدت الحياة
تطاول سؤلي عند القصير
وكن لي بريدًا بباب البريد

ومنها:

بباب السلامة مني عبورٌ؟
لعمري من العمر حظٌ كبيرٌ
وفي القلب شوقاً إليها سعيرٌ
ممنيفةً والفاك المسستيرٌ
بهم للمكارم افقٌ منيرٌ

تري بالسلامة يوماً يكون
وان جوازي بباب الصغير
وما جنة الخلد إلا دمشق
وجامعها الرحب والقبة الـ
وفي قبة النسر لي سادة

أفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس والعشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ.

١. يريد أن الدمع لا يفارقه، وأن الكرى والصبر والسلوان لا تواتيه فجعلها غادرة، وهذا يشبه تأكيد المدح، إلا أن هذا توكيد لصفات بعدها لنفسه.
٢. جاءت بالأصل: " بانياس" وصوابها: " باناس" كما ذكر ياقوت في معجم البلدان، وجاء فيه أنها من أنهار دمشق، وأنشد للحسن بن عبدالله بن أبي حصينة:
يا صاحبي سقى منازل حلق
فرواق جامعها فياب يريدها
يريد التي تروى من باناسها، وفي كتاب الروضتين في أخبار الدولتين رويت بانياس.
٣. يزيد وثور نهران بدمشق.
٤. القصير بالتصغير: عدة مواضع وهو هنا ضيعة تكون أول منزل لمن يريد حلب من دمشق.
٥. باب البريد: أحد أبواب جامع دمشق، وهو من أنزه المواضع، قال علي بن رضوان الساعاتي من معاصري ياقوت:

وليس الى باب البريد سبيل
زالال و أما ظلها فظليل

شديد الى باب البريد حنينه
ديار فأما ماؤها فمصفق

٦. الباب الصغير: باب دمشق من جهة خلفها.

٧. قبة النسر، والقبة المنيفة: من قباب جامع دمشق الكبير.

وباب الفراديس ' فردوسها وبرزة'
فالسهم فالنير يبرزا
كان الجواسق ما هولاة
بنيربها يستنير الفؤاد
ومنها:

واين تاملت فلأك يدور
واين نظرت نسيم يبرق
ومنذ توى نور دين الإله
وللناس بالملك الناصر الص
هو الشمس انوارها بالبلاد
إد ما سطا او حبا واحتبى
بيوسف مصر وايامه

وقد أطال نفسه في هذه القصيدة وكلها غرر وقد اكتفينا بما أوردناه منها، ثم لزم العماد من ذلك اليوم باب السلطان صلاح الدين ينزل لنزوله، ويرحل لرحيله، ولم يغش مجالسه ملازماً لخدمته حتى قرّبه واستكتبه واعتمد عليه، فتصدر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة، وعلا قدره وطار صيته، وكان إذا انقطع القاضي الفضل عن الديوان ناب عنه في النظر عليه وألقى إليه السلطان مقاليدته، وركن اليه بأسراره فتقدم الأعيان، وأشير اليه بالبنان، وكان بينه وبين القاضي الفاضل مراسلات ومحاورات، فمن ذلك أنه لقي القاضي يوماً وهو راكب على فرس فقال له:

سر فلا كبا بك الفرس.

فقال له الفاضل:

شروشاگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی

١. باب الفراديس: من أبواب دمشق تقدم ذكره في شعر ابن قيس الرقيات.
٢. في الاصل: " الأرز" وهو شجر الصنوبر. ولعلها وبرزة قرية من قرى الغوطة في جبل قاسيون.
٣. جمع كفر: قرى خارجة عن دمشق، ومنها مثلاً كفر بطنا وكان معاوية لا تعجبه هذه الكفور فيقول: الكفور قبور.
٤. الجوسق: القصر وينطق به العامة في حصر: كشك.
٥. من نواحي دمشق قال: وقد ذكرها وجيه الدولة بن حمدان فقال:
سقى الله أرض الغوطين وأهلها فلي بجنوب الغوطين شجون
فما ذكرتها النفس إلا استخفى إلى برد ماء النيربين حنين
٦. أي يموج ويضطرب.

دام علا العماد، وكلا القولين يُقرأ عكساً وطرداً^١ واجتمعا يوماً في موكب السلطان وقد ثار الغبار لكثرة الفرسان وتعجب القاضي من ذلك، فأنشد العماد يقول:

أَمَّا الْغُبَارُ فَأَيْبَةٌ مَمَّا اتَّارَتْهُ السَّنَابِكُ^٢
وَالجَوُّ مِنْهُ مَظْلِمٌ لَكِنَّ انَّارَتْهُ السَّنَابِكُ^٣
يَا دَهْرَ لِي عَبْدَ الرَّحِيمِ مِمَّ فَلَسْتُ اخْشَى مَسَّ نَابِكُ^٤

ولما توفى السلطان صلاح الدين رحمه الله، اختلت أحوال العماد ولزم بيته، وأقبل على التصنيف والإفادة حتى توفى.

ومن إنشاء العماد الكاتب الكتاب الذي كتبه عن السلطان صلاح الدين الى ديوان الخلافة ببغداد مبشراً بفتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسائة افتتحه بقوله تعالى: " وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ " الآية، ثم قال: الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى وبدل الأمان بالمخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى للعصر الإمامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من الاعتزاز باعتزائه إليه وانتمائيه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقضت الملوك الماضية والقرون الخالية على مسرة تمنيه وحبرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنيه، وتناصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم، فالحمد لله الذي أعاد القدس الى القدس، وطهره من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبدل بوحشة الكفر فيه من الاسلام الأنس، وجعل عز يومه ماحياً ذلّ أمس، وأسكنه الفقهاء، والعلماء بعد الجهال والضلال من بطرك وفس، وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس^٥، وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظالمين

١. هذا ضرب من البديع يسمونه القلب، وهو من المحسنات اللفظية ومن أمثله في كتب البديع ما جاء على لسان الاستاذين العماد والقاضي الفاضل.

٢. السنايك جمع سنبك: وهو طرف حافر الفرس.

٣. والسنايك في البيت الثاني طرف حليته. أو أعلى البيضة التي يلبسها الفارس.

٤. الحبرة بالباء المفردة: السرور، وكانت في الأصل بالياء المثناة.

٥. يريد بالأولى: المكان، وبالثانية: الطهر.

٦. يريد عابديها.

والحمد لله رب العالمين، فكأنَّ الله شَرَّفَ هذه الأمة فقال لهم:
اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم، وحقق في حُكم امتثال أمره الذي
خالفه اليهود في قوله:

" ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم" وهذا الفتح قد أقدّر الله على اقتضاضه
بالحرب العوان^١، وجعل ملائكته المسومة^٢ له من أعزّ الانصار وأظهر الأعوان،
وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل يوم الأحد، وقمع من كان يقول: " إنَّ الله
ثالث ثلاثة " بمن يقول: " هو الله أحد "، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح^٣، وأتى
بهذا النصر الممنوح الذي هو فتح الفتوح، وقد تعالَى أن يحيط به وصف البليغ نظماً
ونثراً وعبادته في البيت المقدس سرّاً وجهراً، ومُلكت بلاد الأردن وفلسطين غوراً^٤
ونجداً، وبرّاً وبحراً، ومُلتت إسلاماً وقد كانت ملئت كفرّاً، وتقاضى الخادم دَيْنَ الدِّينِ
الذي غلق رهنه دهرّاً، والحمد لله وشكراً، حمداً يجدُّ للإسلام كلَّ يوم نصرّاً، ويزيد
وجوه أهله بشرى فتنوّجُهُ بشرّاً، والكتاب طويلٌ ذَكَرَ فيه فصولاً عن الوقائع التي
تقدمت فتح القدس فاكتفينا منه بما أوردناه.

وللعماد قصيدة من قصائده الطوال ضمَّنها فتح القدس وفلسطين، ومدح السلطان
صلاح الدين اقتصرنا على إيراد طرفٍ منها، قال:

اطيب بانفاس تطيب لكم نفساً واسال عنكم عافيات دوارس معاهدكم ما بالها كعهودكم وقد كان في حدسي لكم كل طرف ارى حدثان الدهر ينسي حديثه نزول الجبال الراسيات و تابت	وثعتاض من ذكراكم وحشتي انسا غدت بلسان الحال ناطقة خرسا وقد كررت من درس اثارها درسا؟ وما جئتم من هجركم خالف الحدسا واما حديث الغدر منكم فلا ينسي رسيس غرام في فؤادي لكم ارسى ارسى
--	--

١. العوان: التي قوتل فيها مرة بعد أخرى، كأنهم جعلوا الأولى بكرة. لأن العوان بفتح العين: النصف
في سنها من كل شيء.

٢. المعلمة.

٤. الروح: هو جبريل عليه السلام.

٥. الغور: المطمئن من الأرض، والنجد: ما ارتفع من الأرض.

٦. أي أمكنة محي أثرها. والدوارس من هذا المعنى جمع دارس: ما محي من الآثار فهو صفة مؤكدة.

٦. الرسيس: ابتداء الشيء ومثله الرس، فهو يقول: إن الشيء القليل من الهوى أرسى في فؤادي من

و قلب الذي يهوى بحمل الهوى اقسى

حسبت حبيبي قاسي القلب وحده

ومنها:

فما ابصرت عيني صباحاً ولا شمساً
كما قد بكت قدماً على صخرها الخنسا
جعلت على حبي لكم مهجتي حبساً

وإن نهاري صار ليلاً لبعديكم
بكيته على مستودعات خدورك
فلا تحبسوا عني الجميل فإتني

ومنها:

وأشرف من اضحى واكرم من
أمسى
ولسنا نرى إلا انامله الخمساً
وبطشته الكبرى وعزته القعساً
ينير بما يولى ليالينا الدمساً
اعاديك حياً في المعارك او إنسا
ردينية ملداً وخطية ملساً
معاركها للجرد ضرساً ولا دهساً
اساود تبغي من نحور العدا نهساً
حدود الرقاق الخشن اخلاقها الشكساً
مجيداً بحكم العزم طردك والعكساً
ورايك في الإحسان ان تطلق
المكس
ونكستهم من بعد اعلامهم نكسا

رايت صلاح الدين افضل من غدا

وقيل لنا في الارض سبعة ابخر
سجيته الحسنى وشيمته الرضا
فلا عدمت ايماناً منه مشرقاً
جنودك املاك السماء وظنهم
سحبت على الارض رداً من القنا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن
غداة اسود الحرب معتقلو القنا
اتوا شكس الاخلاق خشنا فليت
طردتهم في الملقى و عكستهم
فكيف مكست المشركين رؤسهم
كسرتهم إذ صح عزمك فيهم

الجبال الراسيات.

١. يقول: كنت أظن الحبيب قاسي القلب، ولكنني وأنا أحمل الهوى أقسى منه بقدرتي على احتماله.
٢. أي جعلتها وفقاً عليكم لا تكون لغيركم.
٤. أي الثابتة العالية.
٥. أي المظلمة.
٦. الأردن بضم الدال: نهر وإمارة بجوار فلسطين، وملدا وملسا: جمع ملداً وملساء.
٦. حطين: موضع بين طبرية وعكا أوقع فيه صلاح الدين بملوك الافرنج، وقد جعلها بعضهم بين أرسوف وقيسارية، وصوب الأول ياقوت في معجمه، وهناك حطين أخرى بمصر بين الفرما وبلبيس يصاد منها سمك يسمى الحطين، يشق جوفه ويُملح " فسيخ"، والجرد بسكون الراء: الخيل لا رجالة فيها، والضرس: الأكمة الخشنة، والدهس: المكان السهل ليس برمل ولا تراب.
٧. مصدر نهس: أي تبغي أن تنهشه بمقدم أسنانها وتنتفه نتفاً.
٨. كانت هذه الكلمة في الأصل: " الخشنا " يمدح جنود صلاح الدين بأنهم حاربوا قوماً خشناً أخلاقهم وصعبة فانتصروا وتمكنوا من تليينهم والغلبة عليهم بحدود سيوفهم الخشنة.
٩. المكس: ما يأخذه أعوان السلطان.

و مارت كما بستت جبالهم بنسا
 ولم ترض ارض ان تكون لهم
 رمسا
 لتطفأ فزادت من خمودهم قيسا
 يعي السمع إلا من صليل الظبي
 همسا
 اسارى كسفن اليم نيطت بها القلسا
 القلسا
 وقد عرضت نخسا وقد شريت
 بخسا
 لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا
 فندي حسام حاسم ذلك اليبسا
 و ما كان لولا غدره دمه يحسى

بواقعة رجت بها ارض جيشهم
 بطون دئاب البر صارت قبورهم
 و حامت على نار المواضي
 فراشهم
 وقد خشعت اصوات ابطالها فما
 تقاد بداماء الدماء ملوكهم
 سبايا، بلاد الله مملوءة بها
 يطاف بها الاسواق لا راغب لها
 شكا ييسا راس البرنس الذي به
 حسا دمه ماضي الغرار لغدره

ومنها:

فلا غدمت اخلاقك الطهر والقدسا
 والبستها الذين الذي كشف اللبسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا
 نزعت لباس الكفر عن قدس ارضها

ومنها:

ملائكة الرحمن اجنادك الحمسا
 ان ذكروا بالباس لم يذكروا عيسا

جری بالذي تهوى القضاء وظهرت
 وكم لبني ايوب عبدا كعنتر

ومن غزلياته قوله:

وخلفت لذعات الوجد في كبدي
 سكر بلا قدح جرح بلا قود

افدى الذي خلبت قلبي لوحظة
 صفات ناظره سقم بلا الم

٤. أي فتنت وصارت كالهباء المتطاير في الهواء.

٥. كانت هذه الكلمة في الأصل: "قبرا".

٦. نار المواضي: لمعان السيوف كقول الشاعر:

حملت ردينياً كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان

والفراش: طائر يحوم حول النار، فهو يشبههم بالفراش في خفة حلومهم.

٤. الدماء: البحر، والقلس بفتح القاف: الحبل الضخم من قلوب السفن: أي تقاد ملوكهم في بحر من الدماء يخوضونها أسرى كأنهم سفن نيطت بالقلس.

٥. الوكس: البخس في الثمن.

٦. كانت هذه الكلمة في الأصل: تندي.

٧. أي شربه.

٨. أي الغامض.

٩. الحمس جمع أحمس: المشد الصلب.

على محياة من نار الصبا شعلت
ومن حكمياته:

اقنع ولا تطمع فإن الغنى
فإنما ينقص بدر الدجا
وقال:

وما هذه الايام إلا صحائف
ولم ار في دهري كدائرة المنى
توسعها الامال و العمر ضيق
يؤرخ فيها تم يمحي ويمحق

وفاته: توفي يوم الاثنين غرة شهر رمضان سنة ٥٩٧هـ، في المدرسة العمادية بدمشق، ودفن رحمه الله بمدينة دمشق عند مقابر الصوفية.

مصنفاته: خلف مصنفات تاريخية عديدة، منها:

١- الفيج القسّي في الفتح القديسي، ذكره له جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (ج ٦ ص ٦٧) وقال: " وصف فيه صلاح الدين بيت المقدس، وهو مُسجع العبارة يكاد يكون مغلقاً على قراء هذا العصر، لغرابة ألفاظه وأسلوبه ". أما حاجي خليفة فقد ذكره له في كشف الظنون (ج ٢ ص ١٣١٦) وسماه " القدح القسّي " وقال: " وهذا الاسم مسطور في ظهره، لكنه قال: وسميته "الفتح القديسي" وعرضته على القاضي الفاضل وقال لي: سمّه " الفيج القسّي في الفتح القديسي"، والزركلي في الاعلام (ج ٧ ص ٢٥٣) وسماه: "الفتح القسي"، وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي (ج ٦ ص ٥) وذكر له المخطوطات المذكورة أدناه.

نسخ الكتاب الخطية: لهذا الكتاب نسخ خطية في مكتبات العالم، منها:

مكتبة برلين برقم ٩٧٩٤؛ جوتا ١٦٥٤، ليدن ٩٦٣-٩٦٥، باريس أول ١٦٩٣-١٦٩٩، المتحف البريطاني أول ٣١٢، وثان ٥٥١ - ٥٥٢، بودليانا ١/٧٧٥، ٨٢٤، الفاتيكان ثالث ٨٦٦، آيا صوفيا ٣٣٤٦، ٣٧٨٧، عاشر ١/٦٥٦، ٦٨٦/٢، كوبريلي ١١٣٣، فاس جامع القرويين ١٢٨٧، القاهرة ثان ٥/٢٨١، رامپور أول ٦٤٢: ١٧٧، جاريت ٥٨٧. طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٣٢١هـ، ثم سنة ١٣٢٢هـ. كما نشر في ليدن

سنة ١٨٨٨م:

Conquete de la sgrie et de palestine par salahaddin, publ. par C.de landberg, vol.I Texte ar. Leyde 1888.

٢- كتاب البرق الشامي، وهو كتاب تاريخي ذكره له حاجي خليفة في كشف الظنون، ج ١، ص ٢٣٩، وبروكلن في تاريخ الأدب العربي، وجرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية، والزركلي في الأعلام، وابن خلكان في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٣٥) وقال: "في سبع مجلدات، وهو مجموع تاريخ، وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق الى الشام، وما جرى له في خدمة السلطان نورالدين محمود، وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين، وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام، وهو من الكتب الممتعة، وإنما سماه "البرق الشامي" لأنه شبّه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها". منه مخطوطة في مكتبة بودليانا كما جاء في فهرسها " ٧٦١/١". وقال بروكلن في تاريخ الأدب العربي ج ٦ ص ٧. في مكتبة بطرسبرج مخطوطة ترجع الى عصر المؤلف.

٣- نُصرة الفُطْرَة وُعُصرة القُطْرَة، وهو تاريخ للسلاجقة^١ ووزرائهم، وهو ترجمة مختصرة بأسلوب إنشائي فخم للكتاب الفارسي المفصل الذي صنّفه شرف الدين أنوشروان بن خالد المسمى بفتور رمان الصدور، ثم ذيله بما عاينه في عصره من حديث الأعيان. ذكره له صاحب كشف الظنون، ج ٢ ص ١٩٥٦. منه مخطوطة في

١. السلاجقة: أمراء تركمانيون. جذهم سلجوق. وهم فروع عدّة أهمها:

- السلاجقة الكبار، ١٠٣٧-١١٧٥م، أنشأهم طغرل بك، وجغري بك، حفيدا سلجوق. اشتهر منهم: ألب أرسلان، ملكشاه، وبركياروق.
- سلاجقة كرمان، ١٠٤١-١١١٨م، أسس هذه السلالة: قره أرسلان.
- سلاجقة سوريا، ١٠٩٤-١١١٧م، أسسهم: تنش بن أرسلان.
- سلاجقة العراق وكرديستان، ١١١٧-١١٩٤م، أسسهم: مغيث الدين محمود.
- سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ١١٧٧-١٣٠٠م. ومن هذه الفروع برزت عدة سلالات صغيرة أسسها الأتابكة.

بودليانا ٦٦٢/١، وباريس أول ٢١٤٥، وطبع بالقاهرة سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م باسم " تاريخ دولة آل سلجوق" اختصر هذا الكتاب صدر الدين بن السيد الشهيد الحسيني، كاتب الخليفة الناصر لدين الله في كتاب سماه: " زبدة التواريخ" الى وفاة ارطغرل سنة ٥٩٠هـ وأضاف إليه تاريخ الأتابكة الى سنة ٦٢٠ منه نسخة في المتحف البريطاني، واختصره أيضاً الفتح بن علي بن محمد البنداري الاصفهاني في كتاب سماه "زبدة النصرة" طبع في ليدن سنة ١٨٨٩م مع ترجمات فارسية في ثلاثة مجلدات (أنظر تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان، ج ٣ ص ٦٧).

٤- كتاب خريدة القصر وجريدة أهل العصر في تراجم أدياء القرن السادس الهجري، جعله ذيلاً على " زينة الدهر في عصرة أهل العصر" لأبي المعالي سعد بن علي المعروف بالوراق الحطيري المتوفى سنة ٥٦٨هـ، وهو ذيل على دمية القصر للباخرزي، و "دمية القصر" هذه ذيل لبيتيمة الدهر للثعالبي^١. منه نسخ خطية في مكاتب: فاس [جامع القرويين]، ١٣١٩-١٣٢٠؛ طهران سپه سالار [شهيد مطهري حالياً] ٥٠٤/٢-٥٠٩، القاهرة ثان ٩٣/٣، باريس أول ٣٣٢٦-٣٣٣٢، المتحف البريطاني أول ٥٧٤، ١٠٩٦، ليدن ١١٢٥. طبع منه "قسم شعراء مصر" في جزأين.

٥- رسالة العنبي والعنبي، وهي عن الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين الأيوبي، سنة ٥٩٢هـ، ذكرها بروكلمن، ج ٦ ص ٩. ذكرها بروكلمن، ج ٦ ص ٩. كتاب خطفة البارق وعطفة الشارق، عن الأحداث من سنة ٥٩٣ حتى موته، ذكرها له بروكلمن، ج ٦ ص ٩. قال جامع علوم انساني^٢. ديوان رسائل، ذكره له الزركلي في الأعلام، ج ٧ ص ٢٥٤، ويقوت في معجم الأدياء وقال: " وله ديوان رسائل في مجلدات".

٨- كتاب السيل على الذيل، ثلاثة مجلدات، في تاريخ بغداد، جعله ذيلاً على

١. ذكر له حاجي خليفة في كشف الظنون هذا الكتاب في ج ١ ص ٧٠٢، ج ٢ ص ١١٠٣، ٢٠٤٩.

السمعاني، المصدر السابق، وكشف الظنون ج ١ ص ٢٨٨، وسماه " ذيل تاريخ بغداد"، وياقوت في معجم الأدباء.

٩- ديوان شعر، وقد أوردنا في نصّ الترجمة نماذج منها. ذكره له المصدر السابق، وصاحب كشف الظنون ج ١ ص ٨٠٣، وياقوت في معجم الأدباء.

١٠- وقال بروكلمن نقلاً عن معجم الأدباء لياقوت: " كان له بجانب ديوان شعره [ديوان ذو بيت] خاص.

١١- كتاب زبدة النصر و نخبة العصرة- في التاريخ، ذكره له كشف الظنون ج ١ ص ٩٥٤ وقال: " وهو مختصر [كتاب] نصر الفترة" والظاهر أنّه مختصر " كتاب نُصرة الفِطرة " المذكور في التسلسل ٣ فيما تقدم.

النتيجة:

مما لا يخفي علي صاحب كُـلّ بصيرة أن الايرانيين اعتنقوا الاسلام الذي ازدوج مع تراثهم الحضاري و اندمجوا فيه بحيث استطاعوا أن يجعلوا من أنفسهم الساق الرئيسية التي غدّت الاسلام بفكرها و دمها فزادته قوّة و مناعة. و من هؤلاء العلماء الذين كرسوا انفسهم لخدمة العلوم الاسلامية و العربية حيث صعدت الي شفاههم خواطرُ مهجاتهم لِيَبَيِّنَ عنها لسانهم و منطِقُهُم و قَلَمُهُم عماد الدين الكاتب، و هو من العلماء الذين يجب دراستهم دراسة عميقة تبين للجيل الصاعد الطريق الذي يجب أن يُسلك في زماننا هذا. ومن الله التوفيق.

وتجد أخباره في:

إرشاد الأريب (المعروف بمعجم الأدباء) لياقوت، ج ١٩ ص ١١.

الأعلام لخير الدين الزركلي، ج ٧ ص ٢٥٣- ٢٥٤.

الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجيد الدين الحنبلي، ج ١، ص ٣٥٣

إيضاح المكنون لإسماعيل باشا البغدادي، ج ٢ ص ٩٢، ٦٢٩.

البداية والنهاية لابن كثير، ج ١٣، ص ٣٠.

- تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان، ج ٣ ص ٦٧.
- تاريخ الأدب العربي لبروكلمن، ج ٦ ص ٥.
- تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، ج ٢ ص ١١٧.
- الجامع المختصر، في عنوان التواريخ وعيون السير، لعلي بن أنجب المعروف بابن الساعي، ج ٩ ص ٦١.
- حسن المحاضرة للسيوطي، ج ١ ص ٣٢٥.
- الحياة البدوية في عصر الحروب الصليبية لأحمد بدوي، ص ٣٦٤.
- الدارس في تاريخ المدارس للنعمي، ج ١ ص ٤٠٨.
- كتاب الروضتين لأبي شامة [طبعة مصر]، ج ١ ص ١٤٤، ج ٢ ص ٢٤٤.
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، ج ٤ ص ٣٣٢.
- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج ٤ ص ٩٧.
- الفهرس التمهيدي للمخطوطات المصورة الصادر عن جامعة الدول العربية [الإدارة الثقافية] سنة ١٩٤٨م، ص ٣٨٤.
- فهرس المخطوطات المصورة في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية لفؤاد السيد، ج ٢ ص ٥٥.
- فهرس المخطوطات المصورة، إعداد لطفي عبدالديع، الجزء الثاني، ص ١٢٢-١٢٤.
- كشف الظنون لحاجي خليفة:
- ج ١، الصفحات: ٢٣٩، ٢٨٨، ٧٠٢، ٨٠٣، ٩٥٤.
- ج ٢، الصفحات: ١١٠٣، ١٣١٦، ١٩٥٦، ٢٠٤٩.
- كنوز الأجداد لمحمد كردعلي، ص ٣١٤.
- المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء، ج ٣ ص ١٠٠.
- المختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن الديبثي، انتقاء الذهبي، ص ١٢٢.
- مرآة الجنان لليافعي، ج ٣، ص ٤٩٢.
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، لسبط ابن الجوزي، ج ٨ ص ٥٠٤.
- معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس، ١٣٧٥-١٣٧٦.

- مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده، ج ١ ص ٢٦٤.
النجوم الزاهرة لابن تغري بردى، ج ٦ ص ١٧٨، وفيات ٥٩٧ هـ.
الوافي بالوفيات للصفدي، ج ١ ص ١٣٢.
وفيات الأعيان لابن خلكان، ج ٢ ص ٧٤.

